الفصل الأول
القاهرة والأديان على مر العصور

المبحث الأول

القاهرة والأديان على مر العصور

تعد مدينة القاهرة من أقدم مدن الشرق، استأثرت بالكتابة والتأريخ حيث أطلق عليها لقب «جوهرة الشرق»، فتاريخها الذى يمتد بموقعها الجغرافى لما يزيد بكثير على ألفى عام أقدم فى الموقع من التاريخ الذى عرفت به المدينة باسم «القاهرة» لأكثر من ألف عام.

وقد عرفت أجزاء من القاهرة الحالية فى العصر الفرعونى باسم «من نفر» أى المدينة الجميلة وكانت ضاحيتها «أون» أى مدينة الشمس باللغة المصرية القديمة. وتعتبر عاصمة مصر الموحدة منذ أن وحدها الملك نارمر منذ ٣٢٠٠ سنة ق.م.

والمطرية أو عين شمس هى الطبعة الحديثة من مدينة «أون» أول عاصمة دينية فى مصر العتيقة، فمنها انبثقت عبادة الشمس، وفيها وضع العلماء أول تقويم زمنى فى تاريخ البشرية، وهو التقويم الشمسى المطبق فى العالم كله، وكان علماء وفلاسفة الإغريق، ومنهم أفلاطون وفيثاغورس، يحجون إلى عين شمس التى أطلقوا عليها اسم «هليوبوليس»، أى المدينة المقدسة، لكى ينهلوا العلوم من مدارسها، وبقيت مثل متحف مفتوح يروى تاريخ العصور الفرعونية حتى إذا جاء

«البارون أمبان» ليبنى ضاحية جديدة أطلق عليها اسم هليوبوليس ولكن أبناء القرن العشرين استثقلوا الاسم وفضلوا عليه «مصر الجديدة».

أول عاصمة دينية

كانت مدينة «أون» هى مركز عبادة الشمس منذ فجر التاريخ المصرى، وكلمة «أون» تعنى «البرج» الذى كان يستخدم فى رصد حركة الشمس، ويطلق على كبير الكهنة وصف «الراصد الأعظم»، وصار لعبادة الشمس السيادة على غيرها من العقائد المنتشرة فى أقاليم مصر، فلما توحدت البلاد وامتزج الوجهان القبلى والبحرى التقى الجمعان فى «منف» على عبادة الشمس التى ترجع إلى عصور سحيقة عندما تأمل المصريون فى نشأة الكون فانتهوا إلى أن «أتوم» هو الإله الذى خلق نفسه منذ الأزل، فهو الأول بلا بداية، والآخر بلانهاية، فلما عطس تناثر منه الهواء والماء، لأن العطسة تتكون من هذين العنصرين، ومنهما تولدت كل الأشياء. وظلت فكرة «أتوم رع» متأملة فى نفوس الناس وضمائر الأيام كما يقول عالم التاريخ الدكتور أحمد بدوى فى كتابه «فى موكب الشمس».

لقد ظلت عين شمس أو مدينة «أون» محتفظة بمكانتها العالية بين المدن المصرية طوال حقب التاريخ القديم بأكملها، وبالرغم من قلة الآثار التى عثر عليها أو تم اكتشافها فإن المدونات المكتوبة على الآثار التى خلفها الفراعين تعوض شح المعلومات عن عاصمة مصر

الأولى منذ عصور ما قبل التاريخ، ومنذ كانت مركزا علميا للحكمة والفلسفة والفلك وتنظير العقائد. ويلاحظ الأستاذ مختار السويفى أن النظرية المصرية كانت ترى أن بداية الخلق نشأت فى خضم المحيط الأزلى «نون» فانبثق منه لإله «أتوم» الذى خلق نفسه بنفسه ثم خلق كل شيء بدءا بالسموات والأرض، ومن الغريب أن اسم «أتوم» قد أطلق فى اللغات الأجنبية على «الذرة» التى هى أصل كل شيء، وكان اسمه فى اللغة المصرية القديمة ينطق بكلمة «تم» ومعناها التمام أو الكمال أو الاكتمال، كما أن معناها فى اللغة العربية «اكتمل». أما كلمة «أتوم» فهى تصحيف للاسم المصرى القديم وتقول النظرية أيضا إن «أتوم» هو أصل الجنس البشرى، ويشير بعض علماء الدراسات القديمة إلى التقارب بين كلمتى «أتوم»، «آدم».

ولم تفقد مدينة «أون» أهميتها العلمية بعد أن زالت أهميتها السياسية كأول عاصمة لمصر فى عصور ما قبل التاريخ، فبعد أن تفككت الوحدة السياسية وعادت مملكة الوجه البحرى إلى عاصمتها «بوتو»، وعادت مملكة الوجه القبلى إلى عاصمتها القديمة، فى المدينتين المتقابلتين على ضفتى النيل «نخب» و «نخن»، ظلت عين شمس محتفظة بدورها العلمى والحضارى طوال العصور التاريخية التى مرت على مصر على مدى آلاف السنين، ففى العصر اليونانى أطلق عليها اسم «هليوبوليس»، وبعد مرور ٣٥ قرنا على مجد عين شمس تأثر الفلاسفة الإغريق الأوائل فى القرن الخامس قبل الميلاد بالأفكار الفلسفية المصرية

عن نشــأة الوجود وخلق العالم، واقتبسوا من هذه الأفكار الأسس الأولى للفلسفة اليونانية.

وفى العصر الحديث تم اكتشاف بقايا معبد لرمسيس الثانى فى أرض سوق الأربعاء بالمطرية، فضلا عن أحجار أثرية ضاعت نقوشها بفعل الرطوبة الكامنة فى أعماق الأرض. مما يدل على أن هذه الأرض تنطوى على معالم أثرية تعود إلى عصور سحيقة قبل توحيد القطرين وبداية العصر التاريخى، وهو ما يؤكد أن أول عاصمة دينية في مصر القديمة والمعروفة بمدينة «أون» كانت مهدا لدور العبادة فى مصر.

طريق العائلة المقدسة

وفى العصر المسيحى توقفت العائلة المقدسة فى المطرية أثناء تجوالها فى ربوع مصر، ولا تزال «شجرة مريم» مزارا لكل الناس فى تلك المنطقة،وهى الشجرة التى استظلت بها السيدة العذراء ومعها ابنها السيد المسيح حيث كان طفلا، وفيها النبع المبارك الذى استقت منه العذراء وروت ظمأ وليدها. ومن هنا فإن كل الشواهد الأثرية والتاريخية تشير إلى أن تلك المدينة التى تعرف اليوم بالقاهرة كانت – وإن اختلف الاسم فقط – محطا دينيا مهما فى تاريخ الديانة المسيحية كما كانت من قبل فى العصور الفرعونية.

وتؤكد الشواهد التاريخية أن مكان هذه المدينة كان عاصمة لمصر فى أغلب فترات تاريخها، ففى تاريخ مصر الممتد عبر حوالى ٥٠ قرنًا

كانت القاهرة بمعناها الواسع هى عاصمة مصر، إذ يرجع البعض اتخاذ القاهرة عاصمة إلى سنة ٩٨ ميلادية عندما بنى حصن بابليون الذى لا تزال بقاياه موجودة حتى الآن فى منطقة مصر القديمة، حيث أقيم هذا الحصن للدفاع عن الوجهين القبلى والبحرى.

وفى منطقة مصر القديمة كانت تقع القاهرة القبطية، وهى منطقة أثرية مهمة على مقربة من جامع عمرو بن العاص، ومعبد بن عزرا اليهودى، وتضم: المتحف القبطى والكنيسة المعلقة وكنيسة القديس مينا بجوار حصن بابليون وكنيسة القديس شنودة وكنيسة العذراء مريم وكنيسة القديس جورج السقا وكنيسة القديسة بربارة وكنيسة القديس أبو سرجة وكنيسة بابليون وكنيسة الشهيد تادرس وكنيسة الشهيد مرقوريوس (أبو سيفين) وكنائس عديدة أخرى.

وتعد الكنيسة المعلقة أشهر كنائس القاهرة القبطية، وسميت بالمعلقة لأنها بنيت على برجين من الأبراج القديمة للحصن الرومانى (حصن بابليون)، ذلك الذى كان قد بناه الإمبراطور تراجان فى القرن الثانى الميلادى، والذى استطاع المسلمون إسقاطه فى محاربتهم للرومان وأهدى عمرو بن العاص هذا المكان للأنبا بنيامين ليبنى فيه كنيسة وتعتبر المعلقة هى أقدم الكنائس التى لا تزال باقية فى مصر.

أول مسجد

وبنى حول هذا الحصن فى العصر الإسلامى أول مدينة إسلامية فى مصر وهى مدينة الفسطاط عندما جاء عمرو بن العاص لفتح مصر،

وتعتبر مدينة الفسطاط وجامع عمرو أول أثرين إسلاميين بمصر وأفريقيا ويرمزان لمرحلة محورية بل بداية عصر بكامله هو العصر الإسلامى.

ثم بنيت مدينة جديدة على امتداد الفسطاط كعاصمة بديلة فى العصر العباسى وهى مدينة العسكر، التى يعد موقعها الحالى منطقة زينهم، وقد بناها صالح بن على أول وال للعباسيين فى مصر سنة (١٣٣هـ - ٧٥٠م). واستمر ذلك الحال حتى جاء السرى بن الحكم واليا على مصر عام (٢٠١هـ - ٨١٦م) فأذن للناس بالبناء فتهافت الناس على البناء بالقرب من مقر الحكم ونمت المدينة حتى اتصلت بالفسطاط، وكانت مدينة العسكر فى البداية مقصورة على الجنود العباسيين، ولعل هذا السبب الذى جعل الناس يطلقون عليها العسكر.

وفى عام ٢٥٦هـ - ٨٦٩م أنشأ أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية التى استمرت ٣٨ عاما مدينة القطائع بالقرب من حى السيدة زينب، وسميت بهذا الاسم لأن «ابن طولون» قطع الأراضى فيها ومنح كل قطيعة - ما يشبه الشارع أو الحارة - إلى طائفة من القوم، فكانت هناك «قطيعة النوبة» و «الروم» وغيرهما.

أما مدينة القاهرة الفاطمية أنشأها القائد الفاطمى جوهر الصقلى سنة ٣٥٨هـ - ٩٦٩م شمالى مدينة الفسطاط وبناها فى ثلاث سنوات وأطلق عليها اسم «المنصورية» ثم جاء الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى ٧ رمضان ٣٦٢هـ وجعلها عاصمة لدولته، وسماها «القاهرة» وهو اسمها الحالى. وكانت عاصمة مصر السياسية فى العصر الفاطمى بينما

كانت الفسطاط عاصمة مصر المالية والتجارية واستمر الوضع على هذا الحال حتى الحريق الشهير فى نهاية العصر الفاطمى على أيدى إحدى الحملات الصليبية أيام الخليفة العاضد الفاطمى عام ٥٦٤هـ - ١١٦٨م. وأصبحت الفسطاط بعد الحريق مدينة أشباح خاوية على عروشها عدة قرون وفقدت أهميتها كعاصمة للمال والتجارة والصناعة ولم يبق منها سوى مسجد عمرو بن العاص والذى أنقذ من الحريق بأعجوبة.

وقد ظلت القاهرة طوال العصر الفاطمى الأول مدينة خاصة لا يسمح بدخولها لأفراد الشعب الذين كانوا يقيمون فى الفسطاط، العاصمة التجارية والصناعية للبلاد، إلا بإذن خاص وبغرض خدمة أهل الحصن الفاطمى الذين كانوا من خواص الخليفة ورجال الدولة وفرق الجيش. وبرغم أن القاهرة لم تنشأ فى الأساس لتكون مدينة سكنية بمعنى الكلمة، فقد أخذت مناطق سكنية فى الانتشار خارج أسوارها وكان الامتداد الأول للقاهرة الفاطمية خارج أسوارها الشمالية والجنوبية التى شيدها القائد جوهر الصقلى، وقد تم هذا الامتداد بصورة واضحة مع بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى عندما تم تخطيط حارة كبيرة خارج باب الفتوح عرفت بالحارة الحسينية، نسبة إلى قائد القواد الفاطمى الحسين بن جوهر.

وتكررت هذه الظاهرة خارج السور الجنوبى حيث اختطت عدة حارات للسودان وللهلالية فبنى الخليفة الحاكم الباب الجديد خارج

باب زويلة ليحدد لطوائف الجيش المختلفة الحد الأقصى من أراضى الأطراف الممنوحة لهم.

وقد زاد اتساع مدينة القاهرة الفاطمية فى العصر الأيوبى واتسعت الأبنية وبنى صلاح الدين الأيوبى «قلعة الجبل» لتكون حصنا له يعتصم به من أعدائه فى الداخل والخارج، وأحاط القاهرة الفاطمية والفسطاط والعسكر والقطائع بسور ضمهم جميعا تحت اسم مدينة القاهرة سنة ٥٧٢هـ - ١١٧٦م.

المدارس الدينية

ومع هذا الامتداد العمرانى شهدت القاهرة فى العصر الأيوبى إنشاء عدد كبير من المبانى الدينية والخدمية مثل المساجد والمدارس الدينية والأسبلة - المخصصة لشرب المارة - التى لا تزال قائمة حتى الآن. وامتد العمران خلال العصر المملوكى داخل القاهرة حيث وصلت لأوج عظمتها المعمارية والعمرانية فى عصر المماليك وكان الاهتمام الكبير ببناء المساجد والأضرحة والعديد من القصور والمدارس وأنشئت أولى المستشفيات بها تحت مسمى بيمارستان أى مكان المرضى ومن أشهر تلك النماذج بيمارستان قلاوون بشارع المعز. كما أنشئت بعض المناطق الجديدة على حدودها مثل ما يسمى حاليا باب اللوق التى سكنها عدد من فرسان التتر الذين أسلموا وبنى عددا من المساجد والأسبلة بها، وكان عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الأبرز فى العمارة المملوكية.

كما شهدت القاهرة فى عهد الدولة العثمانية التى بدأت فى مصر بعد هزيمة المماليك فى معركة الريدانية سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م طرزا معمارية مختلفة مستمدة من العمارة والفنون العثمانية ومتأثرة بالطرز المعمارية الأوربية.

وتأتى القاهرة فى عصر أسرة محمد على لتشكل ملمحا جديدا ما زال كثير من آثاره باقية حتى الآن، والذى بدأ من سنة ١٢٢٠هـ - ١٨٠٥م حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م حيث بلغت درجة كبيرة فى الاتساع.

ويعد محمد على باشا أول من أدخل العمارة الغربية إلى القاهرة، فأحضر بعض المهندسين الأوربيين وبنوا له سراى القلعة وسراى شبرا وسراى الأزبكية، ثم بنى ابنه إبراهيم باشا قصر القبة.

ومنذ بداية القرن الثامن عشر الميلادى وحتى منتصفه احتفظت القاهرة بنفس حدودها ومساحتها وشكلها العام وأصبحت منذ حكم محمد على مدينة جديدة تدريجيا. ففى سنة ١٢٦٥هـ - ١٨٤٩م بدأت المدينة تشهد بعض مشاريع البنية الأساسية، مثل مشروع توزيع المياه باستعمال المواسير وتوزيعها داخل المدينة وبعض مشاريع الإضاءة.

وفى عهد الخديو إسمعيل وصلت مساحتها إلى ألف فدان - كما يذكر على مبارك فى كتابه الخطط التوفيقية - حيث أضيف إلى المدينة حى الإسماعيلية - منطقة التحرير حاليا -. وأنشئ عدد من السرايات منها سراى عابدين، كما رصفت بعض الطرق مثل شارع الأهرام وكلوت

بك والخليج ومعظم الكبارى الحالية التى تعبر النيل ومدت خطوط السكك الحديدية والهاتف وأنشئت المدارس الحديثة.وظهرت أحياء جديدة فى وسط القاهرة مثل الأزبكية والإسماعيلية والتوفيقية وفيما بعد أحياء الزمالك وجاردن سيتى ثم الأحياء المحيطة بها. وفى عهد الخديو عباس تم إنشاء حى العباسية وأحياء أخرى مثل الحلمية بالسيدة زينب وحلمية الزيتون وعين شمس.

وقد شهدت نشأة الأحياء الجديدة فى القاهرة توزيعا سكانيا مختلفًا فى بداية القرن العشرين حيث تجمعت فئات من السكان فى أحياء معينة مثل تجمع الأقلية اليونانية فى جنوب القاهرة وجنوب غرب الأزهر، واليهودية فى جنوب حى الخرنفش ثم حى السكاكينى، والأوربية فى جنوب حديقة روزتى ثم جاردن سيتى والزمالك، والقبطية فى كلوت بك ثم شبرا، والسورية واللبنانية المسيحية فى الفجالة وفيما بعد مصر الجديدة.

□□□

المبحث الثانى

الفنون والعمارة المصرية فى العصرين القبطى والإسلامى

العلاقة بين الفن والدين

حيثما كان الإنسان وجدت فنونه؛ ولهذا يعد الفن أحد تجليات الحضارات الموغلة فى القدم، وقد تميزت بشكل خاص حضارة مصر بفنونها التى مازال بعضها موجودًا يتحدى عوادى الزمن خاصة عمائرها الدينية التى أقيمت للعبادة وبهدف تحقيق المعتقدات الدينية إما لتخليد الموت الذى قدسه المصريون القدماء أو فى بناء المعابد فى العصور القديمة والكنائس والمساجد فى العصرين القبطى والإسلامى.

وهكذا تؤكد شواهد ،لعمارة الدينية فى مصر أن انتقال الإنسان من دياناته البدائية القديمة إلى ديانات سماوية جديدة لم يضعف من همته تجاه إبداع فنون خاصة به، تلبى احتياجاته الروحية والدينية والحياتية.

وفى جانب من جوانبه المتعددة، لم يكن الفن سوى محاولة من الفنان للتقرب من الخالق المبدع. فقد ارتبط الفن، وعلى مدى آلاف

السنين بالدين، وحاول الفنان البدائي التعبير عن عميق إيمانه بخالقه من خلال أعمال فنية تلقائية بسيطة ظهرت في النحت على الأحجار بالآلات البدائية – وهو ما نشاهده في آثار ما قبل التاريخ بمتاحف العالم –، وتطورت مع الزمن لتنسج ببطء وبشكل تراكمي أحد فصول العلاقة بين الإنسان واعتقاداته فظهرت المباني الضخمة من معابد وكنائس ومساجد.

نشأت الفنون والعمارة إذن في كنف الدين ومضت معه قرونًا طويلة سائرة على نبراسه ومعبرة عن مبادئه. فمن رحم الكنيسة المسيحية وبرعايتها أحيانًا، خرجت الأعمال الفنية العظيمة،إلى أن شق الفن طريقه معبرًا عن الحياة بملامحها وجمالياتها.. ومن ثم تعقيداتها تاركًا بعضًا منه في علاقته القديمة مع الدين.

ومن المؤكد تاريخيا وأثريا أن ضفاف النيل لم تكن بعيدة عن هذه العلاقة بين الفن والدين، ففي مصر القديمة، انطلق الفن من المعابد الفرعونية. وكان الكهنة حراسًا عليه: ثم إن إبداع المصرى القديم من أهرامات وتماثيل ومعابد لم تكن في بعض منها سوى محاولة للتقرب من الخالق.

ثم جاءت المسيحية إلى مصر قبل حوالى ألفى عام لتعيد تأكيد العلاقة بين الفن والدين وأبدع الفنان المصرى القبطى في التعبير عن إيمانه بالمسيحية من خلال الأيقونات والتصوير بالموزاييك والمنسوجات الكتانية والتماثيل والأوانى الفخارية، وحتى شكل العمارة كان فى خدمة الدين.

وبعد أن اعتنقت مصر الإسلام وأصبحت إحدى قلاعه فى العالم، أبدع الفنان المصرى المسلم فى التعبير عن إيمانه من خلال الفنون الإسلامية العديدة كالزخرفة والمنمنمات وأعمال الخشب والتطريز والعمارة وفن الأرابيسك والحلى.. ونظرًا لعمق الفن المصرى تاريخًا وقيمة، فقد أصبح تخصصًا مهمًا لعلماء الآثار والباحثين، ولا يكاد يمر عام إلا وتظهر فى المكتبات، خاصة الغربية منها، مؤلفات تتناول بعمق مرحلة معينة من هذا الفن الذى يحظى باهتمام كبير من المتخصصين وحتى رجل الشارع العادى فى الغرب. وصار ذلك امتداد بشكل أو بآخر لظاهرة «الهوس» بمصر المنتشرة فى الغرب.

والفنون المسيحية فى مصر تحددت شخصيتها عبر الألفى عام الماضية وظهر تأثير المعتقد الدينى فى تناول الفكر الفنى وفلسفته باختلاف أنواعه منذ تطور الفكر الثقافى فى مدرسة الإسكندرية وظهورها كمؤسسة فكرية لها شأن وتأثير فى ثقافة المنطقة والمناطق المحيطة، وإن برزت المؤثرات الفنية الوافدة على تلك المكونات الفنية لهذه الشخصية للفنون المسيحية فى مصر، مثل التأثير البيزنطى واليونانى والرومانى والفارسى والهندى والمصرى القديم، سواء فى التكوين الفكرى لأعمال التصوير بالموزاييك وتصوير «الفرسكو» وتصوير التمبرا أو فن النحت والعمارة.

الأيقونات المسيحية

وأخذت الأيقونات المصرية شخصيتها الفنية المعروفة من المؤثرات البيزنطية والتى كانت منتشرة فى هذا الوقت ثم التأثير الفارسى فى

التصوير في تحديد شكل الوجه والأعين الواسعة المحدقة والمتأملة، وذلك عند الالتجاء إلى رسم القديسين والقصص الديني، وكان للأيقونات المصرية بريق فني انتشر في منطقة الشرق الأوسط، وحرفت إلى أشكال وإضافات أخرى في روسيا، حيث اشتقت الأيقونة الروسية من المصرية وأضيف عليها أشكال معدنية لمعالجة الملابس، ولكن ظلت الهالة القدسية التي تبدو فوق رأس القديسين في الحالتين كرمز للقداسة والنورانية، ويختص الشكل المعماري للكنيسة المسيحية في مصر بشخصية منفردة ومعروفة، ويبدو عليها التأثيرات المأخوذة من الطراز البازيليكي، والطراز القبطي والبيزنطي.

وتعد الأعمال التصويرية المسيحية في مصر التي وجدت في «كرموز» بالإسكندرية «بالكتاكومب» في نهاية القرن الثالث الميلادي، من أقدم الأعمال التصويرية المسيحية في مصر ولم تكن هذه الأعمال الفنية تحتوي على تشخيص ولكنها احتوت على التوريقات النباتية والأسماك، وكانت هذه العناصر ترمز إلى أفكار دينية، حيث استخدمت الرمزية في هذا الوقت للإفادة الدينية والإشارة إلى مضامين للإرشاد الديني، وقد وجد أيضًا نماذج من هذا التصوير في واحة الخارجة بصحراء مصر، وقد استخدمت الألوان المذابة في الماء والمثبتات والتصوير بها على الجدران، كتقليد كان متبعًا في العصور الرومانية واليونانية والمصرية القديمة، حيث كسيت المعابد الفرعونية بالألوان والأكاسيد، بل أكثر من ذلك استخدمت الألوان بشكل رمزي كاستخدام

اللونين الأصفر والأحمر للدلالة على الرجل والمرأة غير أن اختلافًا فى الأساليب الفنية نشأ تدريجيا بين الشرق والغرب. موازيا لما حدث من الانشقاق العقائدى بين كنيسة روما وكنيسة بيزنطة، ولكن فى كل الأحوال كان الاهتمام منصبًا على رفض كل ما هو مرتبط بعصور الوثنية من الصور ورفض ما يمثل الهيئة البشرية، والاتجاه إلى الأعمال الفنية التى تهدف إلى تصوير هالة من القداسة، ثم تلا ذلك إقرار وضع الأيقونات، أو صور القديسين.

ولم يتح للفن المسيحى أن ينمو ويتقدم إلا عندما صارت المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى، فصار عندئذ من الممكن للفن المسيحى أن يتخذ طابعًا عامًا، كما صار من الممكن إقامة أماكن عامة للعبادة وتصميمها وزخرفتها لكى تلبى مقتضيات الدين الجديد.

ولأن الأيقونات كانت تمثل الفن الأمثل للكنيسة المصرية فقد أخذت خطوات لتطور التقنية الخاصة بها وانتهت إلى الرسم على الأخشاب وإعدادها لاستقبال الألوان بخامة الجص، ثم استخدام ألوان «التمبرا» لتصوير القديسين وهى تقنية دقيقة تصنع من زلال البيض أو بياضه مع إضافة الأكاسيد اللونية ومواد حافظة، أما التصوير بالموزاييك أو الفسيفساء، فهو فى العصر المسيحى فى مصر امتداد للتقنية البيزنطية التى ازدهر هذا الفن فى عصرها وزينت به الحوائط والأسقف والأرضيات، وتقدم هذا الفن كثيرًا باستخدام الألوان المذهبة

وقطع الزجاج الشفاف ونصف الشفاف من القطع الخزفية الملونة بمواد «الجليز»، أما عن فن النحت فقد ازدهر النحت على الخشب لتوفر خاماته وكثرة أشجار الجميز والأشجار الأخرى الصالحة لهذا الفن، واقتصر النحت على تماثيل رموز الدين المسيحى مثل تماثيل السيد المسيح والعذراء والملائكة والآباء القديسين واستوردت فى هذا الوقت أنواعا أخرى من الأخشاب مثل الأبنوس من بلاد بونت وإثيوبيا والأرز من فينيقيا والجوز والنبق والبلوط من أوربا، واستخدم أيضًا الفنان المسيحى فى ذلك الوقت خامات أخرى مثل العاج والجص والطين.

المزيج الفنى

والمتأمل فى الفنون والعمارة المسيحية والإسلامية فى مصر يجد أن هناك دورا للمسيحيين المصريين بشكل خاص والعرب بشكل عام فى تكوين الفن الإسلامى وهو دور نجده قد تحقق من خلال كون المسيحيين العرب حلقة وصل بين الفنين البيزنطى والإسلامى سواء أخذنا فى الاعتبار انتماءهم العربى كلغة وغيرها من جوانب أو أخذنا فى الاعتبار أنهم كانوا يدرجون ضمن الدولة البيزنطية التى كانوا منضوين تحت لوائها، ومن ثم فإن الفن الإسلامى ليس نتاجا حسبما هو معروف للفن البيزنطى أو تقليدا له، بمعنى أخر أن العلاقة بين الفنين الإسلامى والبيزنطى لم تكن علاقة أحادية الجانب بين دولتين وحضارتين وإنما هى علاقة تفاعل متبادل، فسكان مصر وسوريا والعراق والآراميين

أو العرب المسيحيين من المعماريين والحرفيين بطوائفهم الصاغة والخطاطين والنحاسين والصفارين والخزافين والنجارين هم الذين ساهموا فى تطوير كل من الفنين البيزنطى والإسلامى فى مصر.

ومن ثم نؤكد أن الحضارة الإسلامية هى حضارة ساهمت بها جميع الديانات والشعوب، فبدلا من أن يقمع الإسلام هذه العناصر استفاد منها وجعلها جزءا لا يتجزأ من بنيته، ثم طور الفنان والمعمارى المسلم من الأشكال الفنية المتعددة والعناصر الزخرفية والمكونات المعمارية ليبنى صروحا معمارية لا زالت شامخة بين عمائر القاهرة إلى الآن.

ففى الأعمال الفنية القبطية لاشىء البتة يفرق من الزاوية الجمالية هذه الأعمال عن أعمال التصوير الإسلامى. وهو ما يؤكد أن تاريخ الحضارة الإسلامية يعد اندماجا بين الفنون السابقة عليها والمعاصرة لها أيضا.

فبعد الفتح الإسلامى لمصر أثرت العمارة والفن القبطى على العمارة الإسلامية المصرية، ودمجت بعض الملامح الفنية القبطية فى بناء العمارة الإسلامية فى مصر.

❑❑❑

المبحث الثالث

فلسفة العلاقة بين الفن والدين

تلعب الفنون دورا مهما فى حياة البشرية سواء أكان هذا الدور خيرا أم شرا كما أنها ذات شأن ليس بالقليل فى عواطفها. ومن ثم كانت نظرة الفلاسفة للفن تدخل فى إطار التأملات الفلسفية، وهذا ما حدث بالفعل فى نظرتهم للدين.

يرى الفلاسفة أن «الدين» و«الفن» كلاهما من مفردات عالم الوجدان بشكل أساسى، لذا فكان البحث فى العلاقة بينهما من المباحث التى حظيت باهتمام الفلاسفة، فالفن والدين كلاهما يمثلان ظاهرتين مركبتين أشد التركيب وكلاهما له جذور راسخة فى عالم الوجدان.

وإذا ذهبنا لاستعراض تعريف «الفن» ولنبدأ بالمعنى المعجمى، ففى «المعجم الوسيط»: نجد عدة تعريفات للفن فهو: «التطبيق العملى للنظريات العلمية بالوسائل التى تحققها، ويكتسب بالمران والدراسة»، و «جملة الوسائل التى يستخدمها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف وبخاصة عاطفة الجمال، كالتصوير والموسيقى والشعر»، و «مهارة يحكمها الذوق والمواهب».

وإذا ذهبنا لاستعراض تعريف «الفن» لدى الفلاسفة، فهناك شبه إجماع فى أغلب لغات العالم على المعنى الاشتقاقى لكلمة «فن»، وهو الذى يحدد الفن بأنه العمل الذى يتميز بالصنعة والمهارة. وهناك اتفاق أيضا على تحديد الفن بأنه مجموع الطرق أو الوسائل، التى تستعمل للوصول إلى نتيجة معينة حسب أصول معينة. وهناك تحديد آخر يقول بأن الفن هو إنتاج جمالى ينتجه الإنسان الواعى ويضيفه إلى الطبيعة. فالفن بالنسبة لأفلاطون هو طريقة فى التعبير بواسطة أشياء حسية من عالم المُثل، فالفن بالنسبة له يلعب دورا مهما على صعيد تذكير النفس بالعالم الذى كانت فيه، وهو الذى يحرضها على العودة إلى هذا العالم.

أما أرسطو، فالفن بالنسبة إليه دور مزدوج هو محاكاة الطبيعة ثم التسامى عنها. أما فى العصور الوسطى، وخصوصا عند توما الإكوينى، فللفن دور واضح، وهو التعبير عن صراع النفس والآلام التى تعانيها عندما تبتعد عن الله، ودور الموسيقى والشعر والرسم يجب ألا يخرج عن هذا الهدف. وباختصار، كان الفن فى هذه الفترة، خادما للدين ومرتبطا أشد الارتباط بالقيم الدينية، لا يستطيع أن يحيد عنها.

دور الدين الحضارى

أما الفن عند المسلمين، فقد نظروا إليه أحيانا من خلال نظرة دينية. لذلك برعوا فى الفن الشعرى وقد استخدموا هذا الفن فى كثير من مجالات حياتهم، كما لعب الشعر دورا مهما فى حياة المسلمين وخصوصا العرب منهم.

بل إن الدكتور زكريا إبراهيم يعتبر الفن «قوة روحية» خلاقة توجد من العدم مخلوقات لا مادية كالموسيقى والشعر وموجودات مرئية كالنقوش والرسوم، أما تلك المخلوقات التى يبدعونها فهى كائنات عجيبة يجمع بينها كلمة «الفن».

فالدين و الفن يشتركان فى القضية نفسها، قضية الإلهام الإنسانى المعبر عنها بطرق مختلفة، فالدين يؤكد على الخلود والمطلق، وتؤكد الأخلاق على الخير والحرية، و يؤكد الفن على الإنسان والخلق، كما يقول على عزت بيجوفيتش فى كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب». وبالتالى فهى كلها فى أساسها نواح مختلفة لحقيقة واحدة يتم التعبير عنها بلغة قد تكون قاصرة فى إيصال المعانى، لكنها اللغة الوحيدة المتاحة، فالدين و الفن يشتركان فى الوحدة المبدئية لجذورهما.

فالدراما ذات أصل دينى، سواء من ناحية الموضوع، أو من ناحية التاريخ. فكانت المعابد هى المسارح الأولى بممثليها وملابسها ومشاهديها. وكانت أوائل المسرحيات الدرامية طقوسا ظهرت فى معابد مصر القديمة منذ أربعة آلاف سنة مضت. كما بلغ المعمار - فى جميع الثقافات - أعظم إلهاماته في بناء المعابد. وينطبق هذا على السواء على المعابد فى الهند القديمة وكمبوديا، كما ينطبق على المساجد فى أنحاء العالم الإسلامى، وعلى المعابد التى وجدت فى غابات أمريكا قبل وصول كولومبوس، وكذا كنائس القرن العشرين فى أنحاء أوربا وأمريكا.

أما الرسم والنحت والموسيقى، فإن ارتباطهم بالدين أوضح، فتكاد الأعمال الفنية الكبرى لعصر النهضة تقتصر في تناولها على الموضوعات الدينية بلا استثناء. وقد وجدت هذه الأعمال ترحيبا أبويا في الكنائس في جميع أنحاء أوربا، حتى لا تكاد توجد كنيسة في إيطاليا أو في هولندا لا تعتبر متحفا في الآن نفسه. وقد أبدع أعظم مؤلفين للموسيقى في القرن العشرين وهما: «دبوسي» و«استرافنسكي» موسيقاهما في موضوعات دينية، حيث ألف «دبوسي» القديس سباستيان الشهيد، كما ألف «استرافنسكي» سيمفونية المزامير و القداس. بينما صور «شاجال» لوحاته الخمس عشرة الرئيسية في موضوعات دينية.

لا دين بلا فن

ومن ثم فإن ما يخبرنا به الفن والطريقة التي يخبرنا بها شيء يفوق قدرتنا على التصديق، كأننا بإزاء رسالة دينية، فاللوحة الفنية هي بشكل ما نوع من أنواع الشعائر مرسومة على قماش، كما أن السيمفونية شعيرة لحنية.

وبالتالي، يرتبط الفن والدين بعلاقة عضوية لدرجة أنه لا يتصور دين بلا فن، فالحياة الدينية في كل الثقافات تغتني بالتعبيرات الفنية والأدبية في ممارسة الشعائر، وتقديم القرابين، والاحتفالات. فالدين والفن يرتبطان بعلاقة حميمة نظرا لأن كليهما يتعامل مع الرمزي في الحياة، وبالتالي فكلاهما تجسيد للثقافي والتركيبي عند الإنسان، وابتعاد عن الغرائزي والطبيعي.

وقد كان لظهور المسيحية ومن ثم توطد أركانها العقائدية والعملية أحدث تأثيراته على صعيد العلاقة مع الفن والجماليات. فالمسيحية لم تلغ دور الفن، بل اعتبرته سلاحا مهما فى تثبيت دعائمها وأركانها. وجاءت مجموعة المنحوتات التى تزين الكنائس والكاتدرائيات المسيحية أداة أيديولوجية للمفاهيم والتفسيرات المسيحية للكون والحياة. ويبرز التأثير المسيحى ساطعا من خلال الانتشار الواسع للمذهب الرمزى، لمفهوم العلاقة الكونية، ومحاولة التعبير عن أية حقيقة بواسطة الترميز، حيث إن الأناجيل نفسها تتضمن مفاهيم أخلاقية عديدة جاء التعبير عنها على صورة أمثال رمزية شهيرة.

ومن ثم أصبحت هذه الأمثال الرمزية فيما بعد موضوعات للرسوم الأيقونية، كموضوع «الراعى الصالح» وغيرها من الرموز. وبالرغم من ذلك كله، فإن أغلب الوثائق والمقررات المسيحية وقفت بشكل غير محبذ للفنون وفى أغلب الأحيان بشكل معاد، ومناقض ورافض لها.

وقد لاحظ الفيلسوف الألمانى الكبير هيغل، أن الفكر الفلسفى المثالى واللاهوتى (وقف منذ زمن بعيد ضد الفن) ولكن لا بد لنا من القول بأن المسيحية برغم سيطرة الاتجاه الأصولى، التزمت عليها فى مرحلة تاريخية كبيرة كانت ينبوعا لا يستهان به لعدد كبير من الأعمال الإبداعية التى أثرت الفن ولعبت فيه دورا مؤثرا إلى حد كبير.

ولا يجوز لنا أن ننسى أن الفنون المختلفة استخدمت كأداة فعالة لشد ملايين الناس البسطاء نحو حضور الشعائر والطقوس والتراتيل

والمواعظ الكنسية، فالأضواء المشعة الصادرة عن الثريات والشموع والمصابيح، والنسائم المشبعة بعبق الأبخرة، كل هذه الأشياء أسهمت في تعميق التأثير على عقول وعواطف وأحاسيس رواد الكنائس. كما أن روعة الأداء في فرق التراتيل الكنائسية لها تأثيرات سيكولوجية كبيرة، بل قد يكون انشداد الناس البسطاء إلى سماعها والتمتع بها هو أحد الأسباب الرئيسة لترددهم على دور العبادات، كما أن استمتاع الناس بهذه الفنون لا يتطابق في معظم الأحيان مع تفسيرات رجال الدين لتلك الأعمال، ففي حين لا يتماهى رجال الكنيسة مع القيم الفنية - الجمالية للكثير من الفنون الجمالية، نجد أن عامة الناس يحبون ويجلون تلك الأعمال لتأثرهم العاطفي والحسي بالنواحي الفنية والجمالية منها.

الفن عند المسلمين

ولم تكن الحياة الدينية الإسلامية استثناء من هذه العلاقة، فقد أخذت التعبيرات الفنية المرتبطة بالدين الإسلامي مسارات متنوعة ارتبطت بظهور وازدهار بعض الفنون، كفن الخط العربي الذي نقل الكتابة من وسيلة لنقل المعنى إلى وسيلة وغاية، فتحولت الكتابة إلى صورة اتخذت من الأبجدية وحروفها وسيلة لارتكاز اللوحة والصورة وإبداع المعنى جماليا في ضوء الشكل. فظهرت مدارس الخط وفنونه المختلفة التي حافظت على تميز الهوية الإسلامية ونقلت إلى العين الإنسانية متعة جمالية خالصة.

ومن الفنون التى صاحبت الحياة الإسلامية فن تجويد القرآن الذى يعتبر نموذجا أوليا للفنون السمعية، حيث إن التمكن من تجويده يعطى الموسيقِى أسرار الموسيقى العربية، وليس من قبيل المصادفة أن نجد أساطين المغنين والموسيقيين قديما و حديثا قد حفظوا القرآن وجودوه و استفادوا من ذلك، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر من العصر الحديث قيثارة الغناء العربى السيدة أم كلثوم والشيوخ أبو العلا محمد وسيد درويش وزكريا أحمد وسيد مكاوى وغيرهم.

ومن الفنون التى التصقت بحضارة الإسلام كذلك فنون زخرفة المساجد التى توسلت الأبجدية والأشكال الهندسية وتوزعت بانسجام على الأعمدة والأقواس، والقباب، والنوافير والجدران والمآذن، وتوزعت فى أصقاع الأرض من شامية ومصرية وأندلسية وتركية وهندية، ممتصة أشكال الجمال الموروثة فى العمارة فى هذه البيئة أو تلك لتشكل ميراثا إنسانيا يخاطب البصر والوجدان، و لتجعل من أماكن العبادة صروحا جمالية.

ومن الفنون التى ارتبطت بالعبادة الإسلامية الرقص الصوفى الذى يلعب عند الدراويش المولوية دورا مهما كوسيلة من وسائل التقرب إلى الله تعالى، حيث ابتدع رقصتهم المشهورة الشاعر الصوفى الشهير جلال الدين الرومى.

وأخيرا، يمكن القول إن الفن حاجة إنسانية روحية لا تحتاج إلى أى تبرير أو إثبات من خارجها، لمارستها أو التمتع به، فالفن حاجة

وليس ترفا. ويمكن أن نقول نفس الكلام عن الدين بمعنى «الإيمان»، إذ لا يستغنى الإنسان، أى إنسان، عن الإيمان بما هو بالنسبة إليه حقيقة. وهنا يلتقى الدين كحقيقة إيمانية بالفن. فالفن مكون رئيس من مكونات الذات الإنسانية السوية، و ضرورة من ضرورات الوجود و الارتقاء الإنسانى.

وينبغى التأكيد على أن الإسلام ليس له «موقف قمعى» من الفنون، فالنهى أو التحريم فى النظرية والتطبيق استهدفا مظان الشرك، ورموز الوثنية، وتحطيم قدسية المخلوقات، وليس التصوير أو النحت أو الرسم أو الغناء أو الموسيقى، فالفنون نعم إلهية لتنمية مشاعر الجمال الإنسانية، وتزيين الحياة بالإبداع وحسن الصنعة، ولا ننسى أن الأصل فى الأشياء الإباحة.

□□□

المبحث الرابع

موالد الأولياء والقديسين بالقاهرة

تعتبر الموالد من أهم الظواهر الاجتماعية والدينية التى تزخر بها القاهرة، فهى ظاهرة جاذبة للكثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع، وكاشفة للعديد من الظواهر الاجتماعية المرتبطة بهذه الكيانات التى لا تخلو منها قرية أو مدينة مصرية.

ويعرف المولد بأنه احتفال سنوى بيوم ميلاد الولى، ويمكن أن يكون ميلادا مجازيا نظرا لأن كثيرا من الأولياء لم يعرف لهم على وجه الدقة تاريخ ميلاد محدد، فمعظمهم وفدوا إلى مصر من المغرب والأندلس والجزيرة العربية، ووجدوا فى مصر الأمن والاستقرار، لذلك يُحتفل بيوم وفاتهم، وفى كثير من الأحيان يكون الاهتمام منصبًا على الظروف الاقتصادية والإيكولوجية التى تمر بها البلاد، فكانت تقام الموالد فى العادة بعد فترات الحصاد.

وتستمر هذه الاحتفالات ثلاثة أو أربعة أيام، وقد تصل إلى ثلاثة أسابيع بالنسبة للموالد الكبيرة مثل الحسين والسيدة زينب، ويختتم الاحتفال بالمولد «بالليلة الكبيرة»، وبانتهائها ينتهى الاحتفال. ويتم عادة الاحتفال بالمولد فى المكان الذى دفن فيه الولى سواء كان هذا

المكان قبرا صغيرا أو مقاما أقيم فوقه ضريح، تكريما لصاحبه وإحياءً لذكراه.

فالأولياء هم هؤلاء الأشخاص الذين خصهم الله عز وجل بقوى وقدرات خاصة خارقة للطبيعة والإنسان، يتميزون بها عن غيرهم من الناس، وتجعلهم قادرين على أداء أفعال غير عادية إعجازية، يعجز الإنسان عن أدائها وتعرف «بالكرامات». والكرامة إذن هى «الإشارة أو الرمز الذى يشير إلى تلك لقدرة التى يستند إليها اعتقاد الصوفيين فى الأولياء». إلى جانب هذه القوة الروحية اشتهر الولى بالورع والتقوى وقوة الإيمان والحكمة وإنكار الذات، والوقوف إلى جانب الضعيف، والإسراع فى تقديم العون والمساعدة لكل من يحتاج إليه دون توقع مقابل لخدماته.

وتتفرد مصر بظاهرة الموالد، التى صبغتها بصبغة خاصة، حتى إنها طبعت الأديان السماوية الثلاثة بطابعها المصرى، فلا فرق بين ولى يلتف حوله المسلمون ولا قديس مسيحى أو يهودى يلتف حوله أبناء هاتين الديانتين.

فالرؤية المسيحية القبطية الأرثوذكسية لمبدأ القداسة والأعمال الخارقة للعادة، مثل طرد الأرواح الشريرة والشفاء من الأمراض المستعصية، لا يختلف عن نفس الرؤية الصوفية الإسلامية لدى محبى آل البيت والأولياء، ومن هنا فتناول موضوع موالد الأولياء والقديسين أمر لا يأتى من باب تأكيد أو نفى الولاية والقداسة، بل يوضح التشابك

بين المؤمنين من ديانات مختلفة، ورؤيتهم لعالم غير مرئى يؤمنون بوجوده. فالموالد واصلت البقاء، بمرور السنين، لأن الناس عرفوا قيمتها، حيث تتمحور حولها علاقات التآزر الاجتماعى والتسامح والزهد فى متاع الدنيا، ولأن الناس يرتادونها دون أن يفكروا كثيرا فى الأسباب التى تدعوهم لذلك. فلا تخلو مدينة أو قرية فى مصر من وجود ضريح أو أكثر لولى من الأولياء الذين يعتقد المصريون فى صلاحهم وتقواهم، وتبعا لذلك يتبركون بهم، ولذلك تحتفظ ذاكرتهم بالموعد السنوى للاحتفال بذكرى موالد الأولياء أو القديسين.

وفى الموعد المحدد يتوجه الآلاف إلى مكان الضريح، حيث مراسم الاحتفال، الذى يمتد غالبا «لمدة أسبوع»، مثل مولد السيد البدوى بطنطا، ومولد السيدة زينب، ومولد الحسين بالقاهرة، بالنسبة للأولياء المسلمين، ومولد السيدة العذراء بالزيتون ومسطرد بالقاهرة، أو مولد سيدى العريان بالمعصرة، بضاحية حلوان بالقاهرة، أو مولد القديسة دميانة بمحافظة البحيرة، بالنسبة للأولياء المسيحيين.

ظاهرة الموالد المصرية

يرجع علماء المصريات جذور ظاهرة الموالد إلى عصر المصريين القدماء، حيث نكتشف أن جذور هذه الظاهرة نشأت فى ظل مجتمع نهرى زراعى، وكانت البداية مجرد تعبير عن الفرحة فى موسم الحصاد، فكان الرقص والغناء. ومع إبداع أجدادنا المصريين القدماء

لفكرة الآلهة، تنوعت الاحتفالات وتعددت، فكان الاحتفال بـ (حابى) إله النيل، و (رع) إله الشمس، و (خنوم) الذى يصنع الإنسان على عجلة الفخار بتكليف من الإله (آمون) و (تحوت) رب الحكمة والكتابة، و (أوزوريس) رمز العدل والحق وإله الآخرة، و (إيزيس) رمز وفاء الزوجة لزوجها، و (حورس) رمز وفاء الابن لأبيه، و (بتاح) الذى خرجت كل الآلهة بكلمة من فمه. فكانت الاحتفالات السنوية لتكريم الآلهة تستمر لعدة أسابيع.

كانت احتفالات موالد المصريين القدماء تعج بالفرح والمرح والموسيقى، ونعرف من لرسوم التى على جدران المعابد، أن الرقص كان يلعب دورا عظيما فى الأعياد والاحتفالات الدينية المختلفة.

كما يذكر أنه كان لكل بلدة فى العصور المصرية القديمة ضريح صغير منذور لإله محلى، وأن أحد هذه الأضرحة، كان سنوسرت الأول (١٩٧١ - ١٩٣٥ق. م) قد ابتناه فى الأصل كمصلى ملكى، كان يسمى «أبيت سووت » (خبر - كا - رع) أى سنوسرت موجود، أول الأماكن المختارة للعبادة، وكان منذورا للإله آمون أى الباطن.

وتؤكد ظاهرة الموالد. رغم مظهرها الدينى، أن الثقافة المصرية ثقافة اتصال لا انقطاع، فاحتفال المصريين بمولد سيدى أبى الحجاج بالأقصر، فى الوقت الحالى يشبه إلى حد كبير ما كان يتم فى العصور الفرعونية، فضريح هذا الولى الذى أقيم داخل مسجد أنشئ على جزء من معبد الإله (آمون) بالأقصر، يخرج فى موكب يطوف المدينة يذكرنا

بما ورد عن مولد الإله آمون، حيث كان موكب الإله يخرج فى احتفال مهيب من معبده مرة كل عام فى سفينته المقدسة، فيطوف أرجاء مدينته التى يتولاها بحمايته ورعايته، وهو ما يحدث فى الأقصر فإن موكب الاحتفال بمولد سيدى أبى الحجاج يخرج هو أيضًا مرة فى كل عام يطوف المدينة.

ويلمس من يواظب على حضور موالد الأولياء والقديسين مدى تشابه الموالد فى مصر سواء تلك التى تخص المسلمين أو التى تخص المسيحيين إلى حد التطابق، ذلك لأن الجوهر الإنسانى المصرى واحد، وتعتمد معالم هذا الجوهر على التدين الفطرى والاعتدال والوسطية فى هذا التدين. وهذه السمات لها جذورها التاريخية فى المجتمع المصرى، فالمصريون القدماء كانوا أشد الشعوب تدينا حيث كانوا يعتقدون أن كل شىء فى العالم ملك الآلهة وأنهم منبع كل خير وأنهم على علم برغباتنا الدنيوية وأن فى استطاعتهم فى كل وقت أن يتدخلوا فى أحوال البشر.

وقد دخلت بعض المعتقدات الشعبية لتصبغ التعاليم الدينية المصرية، فلدى كل من المسيحى والمسلم تقديس خاص للقديسين والأولياء ولكل قديس أو ولى معجزة أو كرامة. أما الاحتفالات السنوية بهؤلاء القديسين والأولياء أو الموالد فيشارك فيها كل طبقات المجتمع المصرى بفئاتهم المختلفة. وعلى اختلاف دياناتهم فالمسلمة توقد الشموع فى مولد مار جرجس كما ترى المسيحية توقد الشموع للسيدة زينب فالاعتقاد فى الأولياء والقديسين تذوب أمامه اختلاف العقائد الجوهرية للديانات.

العذراء وأم العواجز

لعل مولد السيدة زينب بالقاهرة ومولد العذراء الذى يقام بكنائس عدة فى مصر من أبرزها كنيسة العذراء بالزيتون، أبرز مثال على تطابق المعتقدات المصرية فى الاحتفال بالموالد. حيث تصور المعتقدات الشعبية بين المسيحيين والمسلمين السيدة العذراء فى صورة الأم الحنون الرحيمة بالفقراء والأيتام لتى تظلل برعايتها كل أبناء مصر وتعينهم على مواجهة مصاعب الحياة وهى صورة تناظر عند المصريين صورة إيزيس والسيدة زينب والأم بشكل مطلق فالأولى بقيت لقرون طويلة فى العصر الفرعونى تمثل الآلهة الأم المدافعة عن الحق والحافظة للحياة بإنجابها حورس ورعايتها له. وكانت إيزيس هى الباب الذى دلف منه المسيحيون فى هدوء إلى العذراء مريم. وقد أوشك الناس أن يطابقوا بينها وبين كل رب وكل امرأة مؤلهة فى العالم المعروف وكانت هى الحقيقة الواحدة التى كان النساء جميعا يتخذونها طرازا يحتذونه. ويتأكد التناظر بين العذراء والسيدة زينب بالتماثل بينهما فيما يطلق عليهما من ألقاب وصفات فى التراث الشعبى فالسيدة العذراء هى رئيسة القديسين وهى أم الأيتام التى ترضى بقليلها، والسيدة زينب هى رئيسة الديوان وهى الطاهرة أم الغلابة.

ويحتفل المصريون بموالد أهل البيت فى مواعيد سنوية ثابتة إلى حد ما، فهناك موالد ثابتة هجريا كمولد النبى الذى يحتفل به فى مختلف أحياء ومدن وقرى مصر فى ١٢ ربيع الأول. وهناك موالد مرتبطة بتاريخ

هجرى معين وليس تاريخ الميلاد نفسه كمولد السيدة زينب، فالسيدة زينب ولدت فى شهر شعبان فى السنة الخامسة الهجرية ودخلت مصر فى أواخر شهر رجب سنة ٦١ هجرية وتوفيت فى منتصف شهر رجب سنة ٦٢ هجرية ويتم الاحتفال بمولدها يوم الثلاثاء الأخير من شهر رجب وذلك لأن هذا الحين يوائم دخولها مصر بل وانتقالها فيه أيضا إلى الرفيق الأعلى. كما أن هنالك موالد حددتها الدولة بالسنة الميلادية لأن التواريخ الهجرية تتعارض مع مواسم أخرى كموسم جمع القطن والحصاد مثلا، وهكذا.

ويذكر على باشا مبارك، المؤرخ الشهير فى خططه التوفيقية، أن عدد الموالد التى كانت تقام فى القاهرة سنويًا بلغت ثمانين مولدا موزعة على أشهر السنة، كان من أشهرها مولد عبد الوهاب العفيفى، وعبد الله المنوفى بقرافة المجاورين، ومولد سيدى على البيومى بالحسينية، ومولد السيدة فاطمة النبوية بالدرب الأحمر،ومولد السلطان أبى العلا ببولاق، ومولد سيدنا الإمام الحسين بحى الحسين، ومولد السيدة سكينة ومولد الشيخ إبراهيم الفار ومولد السيدة رقية ومولد سيدى محمد الأنور بحى الخليفة، ،ومولد سيدى على زين العابدين بمنطقة السيدة زينب،ومولد الإمام الشافعى بالقرافة الصغرى، ومولد الإمام الليث بن سعد بالقرافة الصغرى، ومولد سيدى عمر بن الفارض بسفح الجبل من القرافة الصغرى، ومولد السلطان الحنفى والشيخ صالح أبى حديد بمنطقة الحنفى، ومولد الشيخ محمد العتريس بجوار السيدة زينب.

ومن أشهر موالد القديسين بالقاهرة مولد مارجرجس، ويقام الاحتفال بمولد القديس مارجرجس فى الفترة من الأول وحتى السابع عشر من نوفمبر كل عام، ويعد مناسبة سنوية للالتقاء بين أبناء الأسر المسيحية من داخل مصر وخارجها حيث تتم خلاله أيضا حفلات الخطوبة والزواج. وتحمل الكثير من الأديرة والكنائس اسم هذا القديس الذى يعتبر الأكثر شعبية بين القديسين بعد السيدة مريم العذراء لدى المسيحيين فى مصر.

كما يحتفل المصريون فى القاهرة بمولد السيدة العذراء، ويقام لها أبرز احتفالين بكنيستى الزيتون ومسطرد، ويشهد الاحتفال آلاف الأقباط والمسلمين حيث يتوافدون على كنيستها بمسطرد شرق القاهرة، حيث توجد المغارة التى اختبأت فيها العائلة المقدسة أثناء هروبها إلى مصر بالإضافة إلى البئر المقدسة التى شرب منها المسيح طفلاً هو وأمه القديسة مريم العذراء، وتبدأ الاحتفالات من ٧ أغسطس من كل عام لتنتهى فى ٢٢ أغسطس، حيث تقام ليلة المولد الكبيرة ويشارك فيها المواطنون من كل أنحاء القاهرة وبعض المحافظات القريبة.

وترصد وقائع التاريخ المصرى المعاصر مولد العذراء فى كنيسة الزيتون بالقاهرة وهو أشهر حدث فى تاريخ الاحتفال بمولدها، حيث رصدت ظهور السيدة العذراء فوق كنيسة الزيتون بالقاهرة عقب

نكسة ١٩٦٧م بعد الهزيمة العسكرية ووسط الأجواء العامة من اليأس والإحباط. حيث أحيط هذا الحدث باهتمام إعلامى ورسمى كبير إضافة إلى الاهتمام الشعبى الواسع بهذا الحدث يوم ٢ أبريل ١٩٦٨م.

□□□

المبحث الخامس

فن زخرفة المصاحف والأناجيل بالقاهرة

كانت القاهرة مركزا من مراكز صناعة المخطوطات وزخرفة الكتب الدينية، لا سيما الأناجيل والمصاحف. ففى ظل ازدهار الحضارة العربية الإسلامية اعتنى العرب بمخطوطاتهم من حيث الخط واستخدام الأشكال الزخرفية والتزاويق الرائعة، كما اهتموا بتجليدها وتذهيبها.

وتطورت صناعة المخطوطات والمصاحف والأناجيل من حيث إخراجها وخطوطها ودقة زخارفها المذهبة وجاذبية أشكالها، واستخدمت الألوان البديعة فى تزيينها، وصنع المصريون الألوان من مواد مختلفة.

ويعد المصحف الشريف من أوائل المخطوطات التى وجهت إليها العناية الفائقة من أجل تجميله وزخرفته وتطوير أساليب رسمه وحفظه، ولم تقتصر المخطوطات الدينية على المصاحف وحدها بل شملت كتب الحديث والسيرة والفقه وغيرها، إلا أن مخطوطات المصاحف تظل أكثر تلك المخطوطات روعة وجمالاً.

ويرجع الاهتمام بفنون المخطوطات إلى العصور الإسلامية، حيث اهتم العرب والمسلمون اهتمامًا فائقًا بالمخطوطات العربية لكونها

السبيل الوحيد للحفاظ على ما أنتجه العقل العربى والإسلامى فجعلوا منها تحفًا فنية ثمينة، وتركوا فيها نتاجًا علميًا ضخمًا، وقد سلكوا مسالك شتى فى هذه الصناعة فاهتموا بالتأليف والإملاء وجمع مادة الكتاب وتدوينها ومراجعتها وتهذيبها وإضافة ما ينبغى إضافته، وحذف ما لا ينفع، وقد ازداد التأليف وتطور منذ القرن الثانى الهجرى وخاصة بعد ظهور حلقات الدرس ومجالس الإملاء التى حققت انتشارها فى بغداد وأرجاء الدولة الإسلامية، كما ازدهرت حركة الترجمة فى العصر العباسى وأسهمت فى ازدهار مهنة الوراقة وتوسع نسخ الكتب المترجمة.

وأبدع فنانو القاهرة فى تجليد المخطوطات، ودخل الجلد فى صناعة التجليد مع استخدام الزخارف الهندسية والنباتية، وبحلول القرن الرابع الهجرى استحدث المجلدون نظام اللسان فى الجلدة، كما اهتموا بتبطين الكتب من الداخل بالبردى والرق والورق والقماش والحرير، وتقدم المجلدون فى بعض الأقطار الإسلامية فى فن صناعة وتجليد الكتاب، وعرفوا طريقة الضغط، كما استخدموا التخريم والتلبيس بالقماش. أما فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين فقد بلغ فن التجليد فى أقطار العالم الإسلامى بصورة عامة، وفى مصر بوجه خاص، درجة عظيمة من التقدم والازدهار.

وتعود أقدم جلود الكتب المعروفة فى العصور الإسلامية إلى مصر حيث صنعت هناك ويمكن تأريخها فيما بين القرنين الثامن والحادى عشر،

ويمتاز تجليد الكتب المصرية العربية التى ترجع إلى العصر المملوكى أى فيما بين القرن الثالث عشر و القرن الخامس عشر بتغطية جلدة الكتاب كلها بزخارف هندسية متشابكة يزيد رونقها نقط ذهبية مضغوطة.

يعتبر المصحف الشريف من أول المخطوطات الدينية التى وجهت إليها العناية والاهتمام، حيث خصّه الفنانون المسلمون بجهود فائقة من أجل تجميله وزخرفته وتطوير أساليب رسمه وحفظه. ومن الطبيعى أن تكون مخطوطات المصاحف ميدانًا لفن تجويد الخط، وقد كتبها الخطاطون فى صدر الإسلام بالخط الكوفى الذى تطور على أيديهم فى سبيل تحسين رسم المصاحف بخطوط أكثر ليونة وانبساطًا.

كما حظى القرآن من المسلمين بنصيب كبير من إبداعهم فى التشكيل الخطى، ومن هنا انبرى الكثير من المذهّبين فى إظهار البراعة والإتقان فى زخرفة وتذهيب المصاحف وشجعهم على ذلك إقبال العديد من العلماء والفقهاء على تعلم فن التذهيب إلى درجة الإتقان، وصل بهم الأمر إلى تذهيب جلود المخطوطات التى كانت آية من آيات الدقة والمهارة الفنية، وكان المصحف محل إجلالهم وتقديرهم، فكتبوه على صفائح الذهب والفضة، وعلى صفائح العاج، وطرزوا آياته بالذهب والفضة وعلى الحرير والديباج، وزينوا بها محافلهم ومنازلهم، ونقشوها على الجدران فى المساجد والمكاتب والمجالس.

كما برع العرب المسلمون فى فن تذهيب الكتاب، الأمر الذى أثار إعجاب الكثير من أصحاب الثقافات والديانات الأخرى، الذين

عملــوا على تقليــد فن التذهيــب عند العــرب، فعملوا علــى تقليده، وتشــهد بذلك بعض المخطوطات الموجودة فــى المتحف القبطى بمصر، وبعض المجموعــات الفنية الأخرى، بأن تزيين المخطوطات بالرســوم الجميلــة وتذهيبها، لم يكن وقفًا على المصاحف، والكتب ذات الصبغة الإسلامية فقط، بل إن مخطوطات الإنجيل والتوراة، والكتب النصرانية واليهوديــة، كانت تكتب هى الأخرى بأنواع جميلة من الخط العربى، وتذهّــب صفحاتها، وكانت تزين بالرســوم الهندســية والنباتية ذات الطابع العربى الإســلامى. ولعل أبدع تلــك المخطوطات، مخطوط نفيس من الإنجيل، مملوكى الطراز محفوظ الآن بالمتحف القبطى بالقاهرة.

والخلاصة أن الأسلوب الفنى الإسلامى الذى ظهر فى المخطوطات الدينية لم يكن مقصورًا على المخطوطات الإسلامية، بل أثّر بشكل واضح فى المخطوطات الدينية للعقائد الأخرى، وكذلك أثرت زخارف المخطوطات الإسلامية على رسوم التحف المعدنية والخزفية والجصّية وفى المنسوجات والسجاد.

ويُعَدُّ الأقباط فى مصر أول من استخدم الجلد المزخرف فى تجليد المخطوطات الدينية، فأجادوا فى ذلك إجادة عظيمة، وتشهد على ذلك مجموعة جلود المخطوطات التى يحتفظ بها المتحف البريطانى بلندن التى تعود إلى تلك الفترة المبكرة.

وقد مَرّ فن تجليد المخطوطات عند المسلمين بمراحل عديدة، فقد قام فى بداية الأمر على التقاليد الحبشية والقبطية، حيث استعمل

المجلدون المسلمون في أول الأمر لوحين من الخشب جُمعت بينهما أجزاء القرآن، ومع قيام فن التجليد، على أسس قبطية، أصبحت أساليب هذا الفن وزخرفته متشابهة فى أقطار العالم الإسلامى كله وبخاصة فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة.

ثم تطور فن تجليد المخطوطات، لا سيما المصاحف والأناجيل، فاستخدم البردى فى التغليف، ومن بين أشهر الأمثلة التى يظهر فيها استخدام البردى فى التغليف كتاب مقدّس عثر عليه بمدينة الفيوم بمصر، محفوظ الآن فى مجموعة راينر البردية فى فيينا. وفى القرنين الرابع والخامس الهجْريّيْن طرأت على فن تجليد المخطوطات فى أقطار العالم الإسلامى تطورات كبيرة تشهد بها النماذج التى وصلت إلينا والتى تزخر بها متاحف العالم.

أما فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين، الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، فقد بلغ فن التجليد فى أقطار العالم الإسلامى بصورة عامة، وفى مصر بوجه خاص، درجة عظيمة من التقدم والازدهار، وقد فاقت القاهرة العالم الإسلامى بهذا الفن، وتشهد على ذلك مجموعة مخطوطات المصاحف المحفوظة فى دار الكتب، والتى يتجلى فى أغلفتها مدى التطور الذى وصل إليه هذا الفن فى مصر تحت حكم المماليك. وكان من وراء هذا التقدم فى صناعة أغلفة المخطوطات بمصر الدور الفاعل الذى أداه سلاطين وأمراء المماليك نحو هذا الفن. فمن أجلهم صُنع هذا الكم الهائل من مخطوطات المصاحف التى كانوا يوقفونها على المساجد والمدارس والأضرحة والخانقاوات التى كانوا يشيدونها.

ومن فنون المخطوطات التى حظيت الكتب الدينية بها فن التذهيب، وهو فن يرتبط فى الحضارة الإسلامية بوجه عام، بفن الكتابة والخط العربى الجميل، حيث كان هناك اتصال وثيق بين كتابة وتحرير الكتب بخط اليد فى القرون الوسطى، وبين استخدام فن التذهيب فى تلوين وتذهيب حواشى الكتب القيمة فى تاريخ الحضارة الإسلامية، لا سيما المصاحف. .

وشهد العصر الإسلامى تطورا كبيرا فى كتابة الإنجيل وزخرفته، حيث شهد نقلة مهمة مرتبطة بتعريب الإنجيل من اللغة القبطية القديمة، حيث بدأت ترجمته للغة العربية منذ القرن العاشر الميلادى، وفى القرن الثالث عشر الميلادى كانت ترجمته العربية قد انتشرت، وحظيت الأناجيل باهتمام فنانى المخطوطات.

❑❑❑